سورة التكوير

مكية، وآياتها ٢٩
[نزلت بعد المسد]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾

في التكوير وجهان: أن يكون من كوّرت العمامة إذا لففتها، أي: يلف ضوءها لفًا فيذهب انبساطه وانتشاره في الآفاق، وهو عبارة عن إزالتها والذهاب بها؛ لأنها ما دامت باقية كان ضياؤها منبسطًا غير ملفوف. أو يكون لفها عبارة عن رفعها وسترها؛ لأنّ الثواب إذا أريد رفعه لفّ وطوي؛ ونحوه قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] أن يكون من طعنه فجوّره وكوّره: إذا ألقاه، أي: تلقى وتطرح عن فلكها، كما وصفت النجوم بالانكدار، فإن قلت: ارتفاع الشمس على الابتداء أو الفاعلية؟ قلت: بل على الفاعلية رافعها فعل مضمر يفسره كوّرت؛ لأنّ «إذا» يطلب الفعل لما فيه من معنى الشرط ﴿ٱنكَدَرَتْ﴾ انقضت قال [من الرجز]:

أَبْصَرَ خِرْبَانَ فَضَاءٍ فَانْكَدَرْ[1]

---

(١) إذا الكرام ابتدروا الباع بدر ... تقضي البازي إذا البازي كسر
داني جناحيه من الطود فمر ... أبصر خربان فضاء فانكدر

للعجاج يمدح عمر بن عبيد الله التميمي. والباع بالمهملة: قدر مد اليدين، والمراد به الكرم مجازًا. وبدر: أسرع وغلب الكرام. وتقضى: نصب به، وأصله: تقضض، أبدل الثاني حرف علة وكسر الأول، أي: أمال جناحيه وداناهما من الجبل العظيم، ومر: سار على وجه الجبل ـ وخربان ـ جمع خرب ـ: طائر يقال له الحبارى، وهو مضاف لفضاء، فانكدر: أي انقض وسقط عليها ليأكلها. ويروى صدر هذا الرجز: =

ويروى في الشمس والنجوم: أنها تطرح في جهنم ليراها من عبدها كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ﴿سُيِّرَتْ﴾ أي على وجه الأرض وأبعدت. أو سيرت في الجوّ تسيير السحاب كقوله ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] والعشار في جمع عشراء، كالنفاس في جمع نفساء: وهي التي أتى على حملها عشرة أشهر، ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة، وهي أنفس ما تكون عند أهلها وأعزها ﴿عُطِّلَتْ﴾ تركت مسيبة مهملة. وقيل: عطلها أهلها عن الحلب والصر، لاشتغالهم بأنفسهم وقرئ: عطلت، بالتخفيف ﴿حُشِرَتْ﴾ جمعت من كل ناحية. قال قتادة: يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص. وقيل: إذا قضى بينها ردّت ترابًا فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم وإعجاب بصورته. كالطاووس ونحوه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: حشرها موتها. يقال: إذا أجحفت السنة بالناس وأموالهم حشرتهم السنة. وقرئ: حشرت، بالتشديد ﴿سُجِّرَتْ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد، من سجر التنور: إذا ملأه بالحطب، أي: ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحرًا واحدًا. وقيل: ملئت نيرانًا تضطرم لتعذيب أهل النار. وعن الحسن: يذهب ماؤها فلا تبقى فيها قطرة ﴿زُوِّجَتْ﴾ قرنت كل نفس بشكلها وقيل: قرنت الأرواح بالأجساد. وقيل بكتبها وأعمالها. وعن الحسن هو كقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾ [الواقعة: ٧] وقيل: نفوس المؤمنين بالحور، ونفوس الكافرين بالشياطين وأد ينذ مقلوب من آد يؤد: إذا أثقل. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]، لأنه إثقال بالتراب: كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها: ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية؛ وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية فيقول لأمها: طيبيها وزينيها، حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئرًا في الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها: انظري فيها، ثم يدفعها من خلفها

= لقد سما ابن معمر حين اعتمر مغزى بعيدًا من بعيد وضبر

تقضي البازي... الخ. واعتمر: أي زار. والمغزى: مكان الغزو. وضبره ضبرًا: جمعه جمعًا. يقول: ارتفع قدره حين غزا موضعًا بعيدًا من الشام، وجمع لذلك جيشًا عظيمًا، وأسرع كإسراع البازي إلى الحبارى: بالغ في وصف البازي تصويرًا لحال المشبه، ومبالغة في مدحه.

ينظر: ديوانه ١/ ٤٢، ٤٣، ولسان العرب (ضبر)، (ظفر)، (عمر)، وأدب الكاتب ص ٤٨٧، والأشباه والنظائر ١/ ٤٨، وإصلاح المنطق ص ٣٠٢، والدرر ٦/ ٢٠، وشرح المفصل ١٠/ ٢٥، والممتع في التصريف ١/ ٣٧٤، والتنبيه والإيضاح ٢/ ١٥٨، وتاج العروس (ضبر)، (ظفر)، (عمر)، (كدر)، (كسر)، (قضض)، (بوع)، (قضي)، وديوان الأدب ٢/ ١٥٦، ١٥٨، ٤/ ١٣٢، وتهذيب اللغة ٣/ ٢٩، وبلا نسبة في الخصائص، ٢/ ٩٠، وشرح الأشموني ٣/ ٨٧٩، والمقرب ٢/ ١٧١، وهمع الهوامع ٢/ ١٥٧، ومقاييس اللغة ٤/ ٢١، والمخصص ٨/ ١٣٢، ٩/ ١٤٣، ١١/ ١٢، ١٢/ ٣٠١، ١٣/ ٢٨٩، وديوان الأدب ٢/ ٤٠٢، وتاج العروس (خرب)، وتهذيب اللغة ٨/ ٢٥٢.

ويهيل عليها التراب، حتى تستوي البئر بالأرض. وقيل: كانت الحامل إذا أقربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة؛ فإذا ولدت بنتًا رمت بها في الحفرة، وإن ولدت ابنًا حبسته فإن قلت: ما حملهم على وأد/ ٢/ ٢٥٥أ البنات؟ قلت: الخوف من لحوق العار بهم من أجلهن. أو الخوف من الإملاق، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، وكانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به، فهو أحق بهن. وصعصعة بن ناجية ممن منع الوأد؛ فبه افتخر الفرزدق في قوله [من المتقارب]:

وَمِنَّا الَّذِي مَنَعَ الْوَائِدَاتِ فَأَحْيَا الْوَئِيدَ فَلَمْ تُوأَدِ[1]

فإن قلت: فما معنى سؤال الموؤودة عن ذنبها الذي قتلت به؛ وهلا سئل الوائد عن موجب قتله لها؟ قلت: سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها نحو التبكيت في قوله تعالى لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقرئ: سألت، أي: خاصمت عن نفسها، وسألت الله أوقاتلها؛ وإنما قيل ﴿قُتِلَتْ﴾ بناء على أن الكلام إخبار عنها؛ ولو حكى ما خوطبت به حين سئلت. فقيل: قتلت أو كلاهما حين سئلت لقيل: قتلت. وقرأ ابن عباس رضي عنهما: قتلت، على الحكاية وقرئ: قتلت، بالتشديد، وفيه دليل بين على أن أطفال المشركين لا يعذبون، وعلى أن التعذيب لا يستحق إلا بالذنب، وإذا بكت الله الكافر ببراءة الموؤدة من الذنب: فما أقبح به، وهو الذي لا يظلم مثقال ذرّة أن يكرّ عليها بعد هذا التبكيت فيفعل بها ما تنسى عنده فعل المبكت من العذاب الشديد السرمد، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن ذلك، فاحتجّ بهذه الآية «نشرت» قرئ بالتخفيف والتشديد، يريد: صحف الأعمال تطوى صحيفة الإنسان عند موته، ثم تنشر إذا حوسب. عن قتادة: صحيفتك يا ابن آدم تطوى على عملك، ثم تنشر يوم القيامة، فلينظر رجل ما يملى في صحيفته وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال: إليك يساق الأمر يا ابن آدم. وعن النبي ﷺ أنه قال: «يحشر الناس عراة حفاة» فقالت أمّ سلمة: كيف بالنساء؟ فقال: شغل الناس يا أمّ سلمة قالت: وما شغلهم؟ قال: نشر الصحف فيها مثاقيل الذرّ ومثاقيل

---

(١) للفرزدق، يفتخر بجده صعصعة: قدم على رسول الله ﷺ فأسلم وقال: يا رسول الله، عملت أعمالاً في الجاهلية فهل لي فيها من أجر؟ فقال: وما عملت؟ قال: قد أحييت ثلاثًا وستين من الموؤدة أشتري الواحدة منهن بناقتين عشر أوبتين وجمل، فقال ﷺ: هذا من باب البر ولك أجره إذ من الله عليك بالإسلام. ويقال: وأد بنته إذا دفنها وهي حية، وكانت كندة تفعل ذلك خوف العار والفقر. ويروى: فأحيا الوئيد وهي أوفع. والوئيد يقال للمفرد والجمع مذكرًا أو مؤنثًا. ويروى: وجدي، أي: هو الذي منع الجماعات الدافنات بناتهن حيات وفداهن من الموت، فكأنه أحياهن، فأطلق الوئيد على المشرفات على الموت مجازًا، والإحياء ترشيح.

الخردل» (١٧١٥) ويجوز أن يراد: نشرت بين أصحابها، أي فرقت بينهم. وعن مرثد بن وداعة: إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش، فتقع صحيفة المؤمن في يده في جنة عالية، وتقع صحيفة الكافر في يده في سموم وحميم أي مكتوب فيها ذلك، وهي صحف غير صحف الأعمال ﴿كُشِطَتْ﴾ كشفت وأزيلت، كما يكشط الإهاب عن الذبيحة، والغطاء عن الشيء وقرأ ابن مسعود: قشطت، واعتقاب الكاف والقاف كثير. يقال: لبكت الثريد ولبقته، والكافور والقافور ﴿سُعِّرَتْ﴾ أوقدت إيقادًا شديدًا وقرئ: سعرت، بالتشديد للمبالغة. قيل: سعرها غضب الله تعالى وخطايا بني آدم ﴿أُزْلِفَتْ﴾ أدنيت من المتقين، كقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق: ٣١]، قيل: هذه اثنتا عشرة خصلة. ستّ منها في الدنيا، وستّ في الآخرة. و ﴿عَلِمَتْ﴾ هو عامل النصب في ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ وفيما عطف عليه. فإن قلت: كل نفس تعلم ما أحضرت، كقوله: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] لا نفس واحدة فما معنى قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾؟ قلت: هو من عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه. ومنه قوله عز وجل: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الحجر: ٢] ومعناه: معنى كم وأبلغ منه. وقول القائل [من البسيط]:

قَدْ أَتْرُكُ الْقِرْنَ مُصْفَرًّا أَنَامِلُهُ[1] . . . . . .

ونقول لبعض قوّاد العساكر: كم عندك من الفرسان؟ فيقول: ربّ فارس عندي. أو لا تعدم عندي فارسًا، وعنده المقانب[2]: وقصده بذلك التمادي في تكثير فرسانه. ولكنه أراد

١٧١٥ ـ عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف. وكذا ابن حجر للثعلبي في تفسيره وابن مردويه أيضًا وأصل الحديث عن عائشة.

رواه البخاري (١٣/ ١٨٨) كتاب الرقاق، باب الحشر الحديث (٦٥٢٧)، ومسلم (٩/ ٢١٠) كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر الحديث (٥٦/ ٢٨٥٩) والنسائي (٤/ ١١٥) كتاب الجنائز، باب البعث وابن ماجه (٢/ ١٤٢٩) كتاب الزهد، باب ذكر البعث الحديث (٤٢٧٦).

وروى الحاكم في المستدرك (٢/ ٥١٤) عن سودة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ يبعث الناس حفاة عراة غرلاً يلجمهم العرق ويبلغ شحمة الأذن قالت قلت يا رسول الله واسوءتاه ينظر بعضنا إلى بعض قال شغل الناس عن ذلك وتلا رسول الله ﷺ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾... الآية».

وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذا اللفظ» ووافقه الذهبي قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من طريق محمد بن أبي موسى عن عطاء بن يسار عن أم سلمة بهذا. وأصله في الصحيحين عن عائشة، وأخرجه الحاكم من حديث سودة. انتهى.

---

(١) تقدم.

(٢) قوله: «وعنده المقانب في الصحاح «المقنب»: ما بين الثلاثين إلى الأربعين من الخيل. (ع)

إظهار براءته من التزيد، وأنه ممن يقلل كثير ما عنده، فضلا أن يتزيد، فجاء بلفظ التقليل، ففهم منه معنى الكثرة على الصحة واليقين وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنّ قارئًا قرأها عنده، فلما بلغ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ قال: وانقطاع ظهرياه.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾

﴿الخنس﴾ الرواجع، بينا ترى النجم في آخر البرج إذ كرّ راجعًا إلى أوّله و﴿ٱلْجَوَارِ﴾ السيارة. و﴿ٱلْكُنَّسِ﴾[1] الغيب من كنس الوحشي: إذا دخل كناسه. قيل: هي الدراري

(١) تعرض الزمخشري في تفسيره للعامل الخ. قال أحمد: هذا الجواب لا يستمر، لأجل ظهور الفعل الثاني في قوله: (فلا أقسم بالخنس) ولما أعضل الجواب عن هذا السؤال في سورة التكوير: التزم الشيخ أبو عمرو بن الحاجب إجازة التعطف على عاملين، واتخذ هذه الآية وزره ومعضده في مخالفة سيبويه، ورد على الزمخشري جوابه في سورة والشمس وضحاها، لأنه لم يطرد له ههنا، وكان على رده يستحسن تيقظ فطنته في استنباطه؛ ونحن والله الموفق نلتزم مذهب سيبويه في امتناع العطف على عاملين في جعل الواو الثانية عاطفة، ويجري جواب الزمخشري ههنا وينفصل عن هذه الآية فنقول: قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾ هذه الواو الأولى ابتداء قسم، والواو في قوله: (والصبح إذا تنفس) عاطفة فيطرد ما قال الزمخشري. فإن قيل: فقد خالفتم سيبويه، فإنه لا يرى الواو المتعقبة للقسم ابتداء قسم بل عاطفة، وقد جعلتم الواو الأولى وهي متعقبة للقسم ابتداء قسم؟ قلنا: إنما تكلم سيبويه في الواو المتعقبة للقسم بالواو وأما الآية فالقسم الأول فيها بالباء والفعل، فجعلنا الواو بعد ذلك قسمًا وتبعًا، وهو أبلغ؛ كأنه أقسم قسمين بشيئين مختلفين. فإن قيل: أجل. إنما تكلم سيبويه على الواو المتعقبة للقسم بالواو، فما الفرق بين المتعقبة للقسم بالواو والمتعقبة للقسم بالباء؟ وما هما إلا سواء، فإن كل واحد منهما آلة له، والتاء تدل على الباء فحكمهما واحد؟ قلنا: ليستا سواء فإن القسم متى صدر بالواو ولم يله واو أخرى، فجعلها قسمًا آخر فيه تكرار مستكره، إذ الآلة واحدة، ولا كذلك إذا اختلفت الآلة؛ فإن عاملة التكرار مأمونة إذا، ألا ترى أنه لو صدر القسم بالواو، ثم تلاه قسم الباء، لتحتم جعلهما قسمين مستقلين. فكذلك لو خولف هذا الترتيب. وأيضًا، فإنه إن كان المانع لسيبويه من جعل الواو الثانية قسمًا مستقلاً مجيء الجواب واحدًا، واحتياج الواو الأولى إلى محذوف، فالعطف يغني عن تقدير محذوف، فيتعين، فلا يلزم اطراد الباء لأنها أصل القسم لا سيما مع التصريح بفعل القسم ثم تأكيده بزيادة لا، فإن في مجموع ذلك ما يغني عن إفراده بجواب مذكور، ولا كذلك الواو فإنها ضعيفة المكنة في باب القسم بالنسبة إلى الباء، فلا يلزم من حذف جواب تمكنت الدلالة عليه حذف جواب دونه في الوضوح؛ وأختم الكلام على هذا السؤال بنكتة بديعة فأقول: إنما خصصت إيراد السؤال بالواو الثانية في قوله: (والليل إذا عسعس) دون الثالثة لأنه غير متوجه عليها. ألا تراك لو جعلتها عاطفة لم يلزمك العطف على عاملين، لأنك تجعلها نائبة عن الباء وتجعل إذا فيها منصوبة بالفعل مباشرة إذا لم يتقدم في جملة الفعل ظرف تعطف عليه إذا، فتصير بمثابة قولك: مررت بزيد وعمرو اليوم، فاليوم منصوب بالفعل مباشرة. وفهم من المثال أن مرورك بزيد مطلق غير مقيد بظرف، وإنما المقيد باليوم مرورك بعمرو خاصة لكن يطابق الآية: فإن الظرف فيها وإن عمل فيه الفعل مباشرة فهو مقيد للقسم بالليل، لا القسم بالخنس.

الخمسة: بهرام[1] وزحل، وعطارد، والزهرة، والمشتري، تجري مع الشمس والقمر، وترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس، فخنوسها رجوعها: وكنوسها: اختفاؤها تحت ضوء الشمس. وقيل: هي جميع الكواكب، تخنس بالنهار فتغيب عن العيون، وتكنس بالليل: أي تطلع في أماكنها، كالوحش في كنسها، عسعس الليل وسعسع: إذا أدبر. قال العجاج [من الرجز]:

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسَا ... وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسْعَسَا[2] / ٢/ ٢٥٥ب

وقيل عسعس: إذا أقبل ظلامه. فإن قلت: ما معنى تنفس الصبح؟ قلت: إذا أقبل الصبح: أقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نفسًا له على المجاز وقيل: تنفس الصبح.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿إِنَّهُ﴾ الضمير للقرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هو جبريل صلوات الله عليه[3] ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾

---

(١) قوله: «بهرام»: ليس بعربي، والمراد به: المريخ. (ع)

(٢) للعجاج. وتنفس الصبح: اتساع ضوئه، أو إقباله بضوء ونسيم. وضمير «لها» للشمس؛ وقيل: للمفازة. وانجاب: انقطع وانفصل عنها ظلام الليل. وعسعس: ولى مدبرًا وزال ظلامه، فهو توكيد لما قبله. ويجوز أن الضمير لبقرة وحشية مثلاً.
ينظر: القرطبي ١٩/ ١٥٥، البحر: ٨/ ٤٣٠ الدر المصون ٦/ ٤٨٧.

(٣) قال محمود: «المراد بالرسول الكريم: جبريل عليه السلام. وقوله: (عند ذي العرش) ليدل على عظم منزلته ومكانته. وثم إشارة إلى الظرف المذكور يعني عند ذي العرش... إلخ» قال أحمد: ما كان جبريل صلوات الله عليه يرضى منه هذا التفسير المنطوي على التقصير في حق البشير النذير عليه أفضل الصلاة والسلام، ولقد اتبع الزمخشري هواه في تمهيد أصول مذهبه الفاسد، فأخطأ على الأصل والفرع جميعًا؛ ونحن نبين ذلك بحول الله وقوته فنقول: أولاً اختلف أهل التفسير، فذهب منهم الجم الغفير إلى أن المراد بالرسول الكريم ههنا إلى آخر النعوت: محمد ﷺ، فإن يكن كذلك والله أعلم فذلك فضل الله المعتاد على نبيه، وإن كان المراد جبريل عليه السلام فقد اختلف الناس في المفاضلة بين الملائكة والرسل، والمشهور عن أبي الحسن: تفضيل الرسل. ومذهب المعتزلة: تفضيل الملائكة، إلا أن المختلفين أجمعوا على أنه لا يسوغ تفضيل أحد القبيلين الجليلين بما يتضمن تنقيص معين من الملائكة ومعين من الرسل؛ لأن التفضيل وإن كان ثابتًا إلا أن في التعيين إيذاء للمفضول؛ وعليه حمل الحذاق قوله ﷺ «لا تفضلوني على يونس بن متى» أي لا تعينوا مفضولاً على التخصيص؛ لأن التفضيل على التعميم ثابت بإجماع المسلمين، أي تفضيل النبي ﷺ على النبيين أجمعين، وكان جدي رحمه الله يوضح ذلك بمثال فيقول: لو قلت بحضرة جماعة من الفقهاء: فلان أفضل أهل عصره، لكان في الجماعة احتمال لهذا التفضيل وإن لزم اندراجهم في المفضولين، ولو عينت واحدًا منهم وقلت: فلان أفضل منك وأتقى لله، لأسرع به الأذى إلى بعضك. وإذا تقرر لك أنه لا يلزم من اعتقاد التفضيل على التعميم جواز إطلاق التفضيل على التخصيص، علمت أن الزمخشري أخطأ على أصله لأنه بتقدير أن تكون الملائكة أفضل كما يعتقد، لا يجوز أن يقال أحد من الملائكة على التخصيص أنه أفضل من أحد الأنبياء على التخصيص، لا =

كقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٥ ـ ٦] لما كانت حال المكانة على حسب حال الممكن، قال: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ ليدل على عظم منزلته ومكانته ﴿ثَمَّ﴾ إشارة إلى الظرف المذكور، أعني: عند ذي العرش، على أنه عند الله مطاع في ملائكته المقرَّبين يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه. وقرئ: ثم، تعظيمًا للأمانة. وبيانًا لأنها أفضل صفاته المعدودة.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ كما تبهته الكفرة[1]، وناهيك بهذا دليلاً على جلالة مكان جبريل عليه السلام وفضله على الملائكة، ومباينة منزلته[2] أفضل الإنس محمد ﷺ، إذا وازنت بين الذكرين حين قرن بينهما، وقايست بين قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ وبين قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

= سيما في سيد ولد آدم عليه أفضل الصلاة والسلام؛ ثم يعود الكلام على الآية بعد تسليم أن المراد جبريل، وبعد أن نكله في تعيينه النبي ﷺ وعده مفضولاً إلى الله فنقول: لم يذكر فيها نعت إلا والنبي ﷺ مثله، أولها: رسول كريم، فقد قال في حقه ﷺ في آخر سورة الحاقة (إنه لقول رسول كريم) وقد قيل أيضًا: إن المراد جبريل، إلا أنه يأباه قوله: (وما هو بقول شاعر) وقد وافق الزمخشري على ذلك فيما تقدم، فهذا أول النعوت وأعظمها. وأما قوله: (ذي قوة) فليس محل الخلاف؛ إذ لا نزاع في أن لجبريل عليه السلام فضل القوة الجسمية ومن يقتلع المدائن بريشة من جناحه، لا مراء في فضل قوته على قوة البشر. وقد قيل هذا في تفسير قوله: (ذو مرة فاستوى) وقوله (عند ذي العرش مكين مطاع ثم) فقد ثبت طاعة الملائكة أيضًا لنبينا ﷺ. ورد أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: إن الله يقرئك السلام، وقد أمر ملك الجبال أن يطيعك عند ما آذته قريش فسلم عليه الملك وقال: إن أمرتني أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت، فصبر النبي ﷺ واحتسب. وأعظم من ذلك وأشرف: مقامه المحمود في الشفاعة الكبرى يوم لا يتقدمه أحد، إذ يقول الله تعالى له: ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع. وأما (أمين) فقد قال وهو الصادق المصدوق: والله إني لأمين في الأرض أمين في السماء، وحسبك قوله: وما هو على الغيب بظنين. إن قرأته بالظاء فمعناه أنه ﷺ أمين على الغيب غير متهم، وإن قرأته بالضاد رجع إلى الكرم، فكيف يذهب إلى التفضيل بالنعوت المشتركة بين الفاضل والمفضول سواء؛ ومالي مباحثة في أصل المسألة، ولكن الرد عليه في خطئه على كل قول يتعين، وإلا فالمسألة في غير هذا الكتاب. فنسأل الله أن يثبتنا على الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله، وعلى القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يعمر قلوبنا بحبهم، وأن يجعل توسلنا إليه بهم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) قوله: «كما تبهته الكفرة» أي تتهمه بما ليس فيه. (ع)

(٢) قوله: «ومباينة منزلته... إلخ» يعني ارتفاع منزلته على منزلة رسول الله ﷺ، وهو مبني على مذهب المعتزلة من تفضيل الملك على البشر. ومذهب أهل السنة: تفضيل رؤساء البشر. وإنما ذكر جبريل تلك الصفات واقتصر على نفي الجنون عن النبي ﷺ لأن جبريل مجهول لهم، بخلاف محمد ﷺ فإنه صاحبهم؛ ولذا اقتصر على نفي ما بهتوه به. (ع)

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ ولقد رأى رسول الله ﷺ جبريل ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ بمطلع الشمس الأعلى ﴿وَمَا هُوَ﴾ وما محمد على ما يخبر به من الغيب من رؤية جبريل والوحي إليه وغير ذلك ﴿بِضَنِينٍ﴾ بمتهم من الظنة وهي التهمة وقرئ: بضنين، من الضنّ وهو البخل أي: لا يبخل بالوحي فيزوي بعضه غير مبلغه؛ أو يسأل تعليمه فلا يعلمه؛ وهو في مصحف عبد الله بالظاء، وفي مصحف أبيّ بالضاد، وكان رسول الله ﷺ يقرأ بهما. وإتقان الفصل بين الضاد والظاء: واجب. ومعرفة مخرجيهما مما لا بد منه للقارىء، فإنّ أكثر العجم لا يفرّقون بين الحرفين وإن فرقوا ففرقا غير صواب، وبينهما بون بعيد؛ فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان، وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أضبط يعمل بكلتا يديه، وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه، وهي أحد الأحرف الشجرية أخت الجيم والشين، وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا، وهي أحد الأحرف الذولقية أخت الذال والثاء. ولو استوى الحرفان لما ثبتت في هذه الكلمة قراءتان اثنتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة، ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب فإن قلت: فإن وضع المصلي أحد الحرفين مكان صاحبه. قلت: هو كواضع الذال مكان الجيم، والثاء مكان الشين، لأن التفاوت بين الضاد والظاء كالتفاوت بين أخواتهما ﴿وَمَا هُوَ﴾ وما القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي بقول بعض المسترقة للسمع وبوحيهم إلى أوليائهم من الكهنة.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ استضلال لهم كما يقال لتارك الجادّة اعتسافًا أو ذهابًا في بنيات الطريق[1]: أين تذهب؛ مثلت حالهم بحاله في تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ بدل من العالمين وإنما أبدلوا منهم لأنّ الذين شاؤا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر، فكأنه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موعظين جميعًا ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ الاستقامة يامن يشاؤها إلا بتوفيق الله[2] ولطفه. أو: وما تشاؤونها أنتم يامن لا

(١) قوله: «في بنيات الطريق» في الصحاح «بقيات الطريق»: هي الطرق الصحار تتشعب من الجادة. (ع)

(٢) قوله: «يا من يشاؤها إلا بتوفيق الله» تأويل المشيئة بذلك مبني على أن فعل العبد بخلق العبد وإرادته، لا بخلق الله تعالى ولا بإرادته: وهو مذهب المعتزلة. ومذهب أهل السنة: أنه بخلق الله تعالى وإرادته كظاهر الآيات. وقوله بقسر الله، أي بجبره العبد على الفعل؛ لكن الجبر ينافي =

يشاؤها إلا بقسر الله وإلجائه.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إذا الشمس كوّرت أعاذه الله أن يفضحه حين تنشر صحيفته» (١٧١٦).

١٧١٦ ـ تقدم برقم (٣٤٦) قال الحافظ: أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بإسنادهم إلى أبي بن كعب انتهى.

= الاختيار المصحح للتكليف واستحقاق الثواب والعقاب، ويمكن أنه أراد بقسر الله إرادته المستلزمة لوجود المراد، كما سبق له في الكتاب غير مرة للتعبير بإرادة القسر، لكن استلزام الإرادة للمراد لا يستلزم قسر العبد وجبره عند أهل السنة، وإن كان الله هو الخالق لفعل العبد؛ لأنهم أثبتوا العبد الكسب، خلافًا للمعتزلة. وتفصيل المقام في علم التوحيد. (ع)